تراث الإنسانية

روبنسون كروزو

لدانيل ديفو



الهيئة
المصرية
العامة
للكتاب

د. انجيل بطرس سمعان

مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٤

إهـــــــداء2005

أ.د./ محمد عثمان نجاتي

القاهرة

روبنسون كروزو

روبنسون كروزو

لدانيل ديفو

د . انجيل بطرس سمعان



مهرجان القراءة للجميع ٩٤

مكتبة الأسرة

(تراث الإنسانية)

الجهات المشتركة :

جمعية الرعاية المتكاملة

وزارة الثقافة (هيئة الكتاب)

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة الحكم المحلى

المجلس الأعلى للشباب والرياضة

الانجاز الطباعى والفنى

محمود الهندى

مراد نسيم

أحمد صليحة

المشرف العام

د . سمير سرحان

روبنسون كروزو
لدانيل ديفو
د . انجيل بطرس سمعان

لعل أول ما يخطر لنا عند ذكر « روبنسون كروزو » هو تلك الساعات الجميلة التى قضاها معظمنا أيام الطفولة في قراءة هذا الكتاب الممتع ، متعلقين بالبطل ، متتبعين لمغامراته ، مشدودين اليه وهو يجوب أطراف جزيرته النائية باحثا عن الطعام ، مستكشفا معالم عالمه الجديد ، أو وهو يقدح زناد فكره ليجد طريقة يصنع بها آنية يحتفظ فيها بغذائه ، أو وهو يقاتل عددا من آكلى لحوم البشر لينقذ الضحية المسكينة التى كادت ان تصبح طعاما لبعض أفراد جنسها ، مبتئسين لوحدته حينا ، فرحين بانتصاره حينا آخر ، وأخيرا مهللين لنجاته وعودته سالما لبلاده ٠

ولعل هذا الخاطر الجميل قد ينسينا ولو لبرهة قصيرة أن « روبنسون كروزو » وان قرئت أول ما تقرأ عادة في سنوات الطفولة الا أنها ، مثلها في ذلك مثل كثير من روائع الأدب العالمى « كرحلات جاليفر » ، و « دون كويكشوت » مثلا ، لم تكتب أصلا للأطفال ٠ فسرعان ما نذكر عودتنا الى هذه القصة فيما بعد الطفولة واستمتاعنا بها كعمل أدبى

فريد ، وتناولنا لها بالقراءة الجادة والدراسة والتحليل ٠
« فروبنسون كروزو » ليست احدى الروايات الخالدة التى راجت وأصبحت جزءا من التراث الانساني فحسب ولكنها ذات أهمية خاصة فى تاريخ الأدب أيضا ، فهى تعد بحق أول عمل قصصى روائى ٠ كتبها دانيال ديفو فى أواخر الحقبة الثانية من القرن الثامن عشر فكانت فاتحة لذلك النشاط الروائى الذى ازدهر فى انجلترا فى النصف الأول من ذلك القرن على يد صمويل ريتشاردسون وهنرى فيلدنج ولورنس ستيرن وتوبياس سموليت ، واكتمل نموه فى القرن التاسع عشر وانتقل من انجلترا الى فرنسا وروسيا اللتين بزتا انجلترا فى هذا المضمار ٠

ولم يكن دانيال ديفو يدرك تماما أهمية العمل الذى قام به وما أظنه كان يرحب بمولد هذا الفن الجديد ـ فن الرواية ـ على يده ٠ فقد قدم عمله للقارىء مدعيا أنه سجل لأحداث حقيقية وقعت فعلا ولا دخل للخيال فيها ٠ لذا فقد عمل بكل وسيلة لايهام القارىء بصحة ادعائه ، فأضفى على أحداث قصته الخيالية جوا من الصدق والواقعية ، فوضع بذلك حجر الأساس فى حرفية هذا الفن الجديد ٠

ونحن عندما نتحدث عن فن الرواية انما نعنى الرواية كما نعرفها اليوم ونفرق بينها وبين القصص الرومانسية أو قصص البطولة والحب التى كانت تصور عالما خيالها قائما

على الأعمال البطولية الخارقة التي يقوم بها الأبطال والأمراء ، بل والآلهة أحيانا ، ولا تمت الى عالم الواقع بصلة • كما نفرق بينها وبين القصص «البيكارية» أو قصص «الشطار» التي تقوم أساسا على وصف مغامرات أحد هؤلاء «الشطار» أو الأبطال المتجولين ولا تهتم كثيرا بتصوير الحياة المعاصرة تصويرا واقعيا • ومن الواضح أن ديفو عندما قرر في مقدمة كتابه أنه يقدم مغامرات حقيقية وأنه يهدف من وراء ذلك الى جانب ادخال السرور الى قلب القارىء ، تلقينه درسا أخلاقيا ، انما كان يرمي بذلك التفريق بين عمله وبين تلك الأعمال وهكذا نجد ديفو ينحو نحوا جديدا في كتابة الأعمال القصصية ، ويتجه نحو الواقع ليقدم شخصيات من واقع الحياة وان وجدوا أنفسهم في ظروف غريبة مثيرة • وكأنه يباعد بين عمله وبين تلك القصص الرومانسية التي كان يرى فيها الكثيرون من أبناء عصره عبثا ومضيعة للوقت وبين تلك الأعمال • ومما لا شك فيه أن هذا الاتجاه كان نتيجة لمزاجه الخاص ولروح العصر الذي عاش فيه ، فمن الواضح أن دانيال ديفو وبطل قصته انما يمثلان أبناء تلك الطبقة المتوسطة التي كان لنموها في ذلك الوقت فضل كبير في جعل فن الرواية ممكنا •

وجدير بنا قبل أن ننتقل الى تحليل « روبنسون كروزو » ودراسة الصفات التي جعلت منها عملا حيا خالدا أن نتعرف أولا على شخصية كاتبها وأن نشير باختصار

الى بعض العوامل التي هيأت الجو المناسب لمولد فن الرواية وازدهاره ٠

دانيـــال ديفـو :

كتب دانيال ديفو « روبنسون كروزو » وقد شارف الستين من عمره وبعد أن كان قد اكتسب خبرات وتجارب عديدة متنوعة ٠ فقد كانت حيـاته حيـاة حافلة متعددة الجوانب ٠ ولد ديفو (وكان اسمه الأصلي فو فغيره في أواسط حياته الى ديفو) في عام ١٦٦٠ في سانت جايلز بلنـدن من أسرة مزارعين كانت قد انتقلت الى لنـدن من مقاطعة نورثهاميتون ٠ أما أبوه جيمس فو فكان جزارا في منطقة سانت جايلز وكان ينتمي الى جماعة البروتستانت الذين لا يتبعون الكنيســة الرسـمية لانجلترا ويدعون Nonconformists أو Dissenters أي المخـالفون أو المعارضـون ٠ وهم قوم يميلون الى التطرف في الاهتمام بأمور الدين ويوصفون بالتطهيريين ٠

أما ديفو نفسه فكان شخصية مثيرة غامضة ٠ عمل بالتجارة والصحافة والجاسوسية والأدب وأخيرا استحق أن يلقب « بأبي الرواية » ٠ ويختلف كتاب السيرة ومؤرخو الأدب فيما يختص ببعض تفاصيل حيـاته ، لما اكتنفها أحيانا من الغموض والتناقض نتيجة لمزاولته بعض أنواع النشاط التي تدعـو الى السرية والحيطة ٠ والمعروف أن

والده أراده أن يصبح قسا فألحقه بكلية نيونجتون جرين الدينية ليحصل على التعليم اللازم لذلك ولكنه لم يتم دراسته وترك هذا المعهد بعد خمس سنوات دون أن يحصل على أية مؤهلات دراسية ، ولكنه حصل على كثير من المعلومات التي اعتمد عليها كثيرا فيما بعد . كما أجاد كتابة اللغة الانجليزية التي أصبحت من أهم الأسس التي قام عليها نجاح كتاباته الصحفية والأدبية على حد سواء . ومما هو جدير بالذكر أن ديفو لم يتلق التعليم التقليدي الكلاسيكي ولكنه تلقى تعليما حديثا بمعنى أنه درس اللغات الأوربية الحديثة بدلا من اللغات القديمة كما درس التاريخ والجغرافيا وعلم السياسة ، بدلا من الميتافيزيقا والعلوم الشكلية .

ولم يصبح ديفو قسا ، بل اتجه نحو التجارة فعمل لدى صانع جوارب أولا ثم استقل بتجارة خاصة به في عام ١٦٨٥ وراجت أعماله وقام برحلات تجارية متعددة الى بعض أجزاء القارة الأوربية مثل أسبانيا وألمانيا وهولندا .

عاش ديفو في فترة مضطربة من تاريخ بلاده ، فترة سادها الصراع بين أنصار المذهب البروتستانتي ويشكلون الغالبية العظمى من أبناء البلاد وبين الملوك الكاثوليك الذين حكموا انجلترا بعد عودة الملكية اثر انتهاء حكم كرومويل . لذا استهوته السياسة ، ولكونه من أتباع المذهب

البروتستانتي فقد اشترك في ثورة مونموث (١٦٨٥) التي قادها دون مونموث ضد الملك جيمس الثانى الكاثوليكى ، وكان من حسن حظه أن تمكن من الهروب عند فشل هذه الحركة • ولكنه عاد فاشترك في ثورة ١٦٨٨ أو الثورة المجيدة التى أطاحت بجيمس الثانى وأتت بوليم الثالث البروتستانتي الى العرش •

وقد كان ديفو يكتب النشرات سرا للدفاع عن المذهب البروتستانتي ، أما بعد أن فاز أنصــار هذا المذهب فلم يتوان فى اعلان الولاء للملك الجديد عن طريق اعلانه عن كتاباته بكل شجاعة واقدام • وسرعان ما جذب الأنظار وعرف فى أوساط البلاط ، وأصابت نشراته ـ وخاصة ما كان منها للدعاية للملك الجديد ـ نجاحا كبيرا • الا أنه يبدو أن هذا النشاط كان على حساب تجارته ، اذ أفلس فى عام ١٦٩٢ وعليه من الديون حوالى ١٧٫٠٠٠ جنيها ، واضطر الى الانتقال الى بريستول حيث عاش فى شبه عزلة تامة حتى أطلق عليه « سـيد يـوم الأحد » لأنه كان يختفى بقية أيام الأسبوع خوفا من الدائنين • ولكنه ما لبث أن استرد مكانته عن طريق كتابة النشرات • وفى عام ١٦٩٤ بدأت أنجح فترات حياته ، اذ عين محاسبا للجنــة ضريبة الزجاج ثم أصبح مديرا لمصنع للآجر والبلاط ، وتحسنت أحواله المالية ، فســدد ما عليه من ديون واشترى عربة وقاربا للنزهة • ولكن تجارته أفلست مرة أخرى بحيث بدا من الواضح أنه أكثر نجاحا ككاتب منه كرجل أعمال •

فبالرغم مما حققته كتاباته من أرباح الا أن أحواله المالية استمرت فى الارتفاع والهبوط الى آخر حياته • ومما يقال انه قضى أواخر أيامه فى السجن لعدم تمكنه من سـداد بعض الديون •

ومن أهـم النشرات التى كتبها فى هذه الفترة « مقال عن المشروع » (١٦٩٧) وفيه تقدم بمقترحات كثيرة سابقة لعصره مثل التأمين الاجتماعى وتعليم المرأة ، ثم « الانجليزى الأصيل » (١٧٠١) وفيه دافع عن الملك ضد أولئك الذين هاجموه لكونه أجنبيا عن البلاد • أما « أقصر طريق مع المعارضين » (للكنيسة الرسمية) (١٧٠٢) فكتبه للدفاع عن هذه الفئة الدينية ولكنه كتبه بلغة عنيفة ومشابهة للغة رجال الكنيسة الرسمية الذين ظنوه خطأ دفاعا عنهم ولكنهم ما لبثوا أن اكتشفوا ما ينطـوى عليه من سـخرية بالغة فأمروا بحـرقه ، وحـكم على ديفو بغرامة مالية وبالسجن والوقوف فى آلة التعذيب : pillory ثلاث مرات• ومما يقال أن الشعب وقف الى جانبه فى هذه المحنـة وبدلا من أن يقذفوه بالطمـاطم والبيض الفاسد كما كان متبعا مع من يقف هذا الموقف ، الا أنهم قدموا له الزهور وجعلوا منه بطلا شـعبيا محبـوبا • وعلاوة على ذلك فقد كانت فترة وجوده فى السجن فرصـة للتعرف على كثير من المجرمين من لصوص ومزورين وقطاع للطريق الذين أمدته قصص حياتهم بالمادة الخام لبعض أعماله الروائية فيما بعد •

وفى أول نوفمبر ١٧٠٣ أطلق سراحه نتيجة لاتفاق سرى بينه وبين هارلى رئيس الوزراء فى ذلك الوقت . وعمل ديفو مخبرا سريا ومستشارا للحكومة ، مقدما خدماته ، كما يحلو لأعدائه أن يؤكدوا ، لحزبى الأحرار والمحافظين على حد سواء .

ولعل أهم ما يعنينا من نشاط ديفو فى هذه الفترة هو اصداره لجريدة « ريفيو » وهى دورية سياسية أدبية كانت تصدر مرتين فى الأسبوع وكان ديفو يكتب معظم مادتها بنفسه ، وتعد أول جريدة هامة ناجحة فى ذلك الوقت . ويتفق النقاد جميعا على أن ديفو قد لعب دورا هاما فى ارساء قواعد الصحافة الانجليزية الحديثة وأنه اكتشف معظم أدواتها فأصبح بذلك « أبا للصحافة » كما أصبح « أبا للرواية » . فقد جعل من اللغة الانجليزية أداة سهلة طيعة لنقل الخبر ونشر الآراء واقناع القارىء والتأثير عليه وذلك عن طريق استخدام أسلوب بسيط ، والتخلص من المحسنات اللفظية التى كانت تثقل أسلوب الكتابة . وهو بذلك لم يخدم الصحافة فحسب ولكنه أعد الطريق لمولد الرواية التى أصبح الأسلوب السهل المعبر الذى يعتمد على الدقة والصدق ركنا من أهم أركانها . هذا بالرغم مما يتهمه به معاصروه من رواد المدرسة الكلاسيكية التقليدية من سوقية وجهل بأصول الكتابة واهمال للجمال. كذلك فقد عمل من ناحية أخرى على توسيع قاعدة القراء

من أبناء الطبقة المتوسطة الذين لم يتلقوا تعليما كلاسيكيا بتقديمه نوعا من الكتابة يمكنهم فهمه والاستمتاع به ٠

وهكذا نرى أن هذه الأعمال الصحفية والسياسية قد ساعدت في اعداد ديفو لعمله الأهم والأبقى وهو كتابة الأعمال الروائية التى خلدت اسمه ٠ فقد علمته الى جانب ذلك كيف يقنع قراءه بصحة حقائقه وأخباره كما أكسبته تلك القدرة على اختراع التفاصيل المكانية والزمانية الدقيقة (circumstancial) واستخدام ما وصف « بالكذب الذى يشبه الصدق » كما سنرى بوضوح فى « روبنسون كروزو » ٠

أعماله الروائية :

أما هذه الأعمال الروائية فكتبها فى الفترة الواقعة بين ١٧١٥ و١٧٣١ بعد أن انتقل مع زوجته وأولاده الى ستوك نيونجتون حيث قضى بقية أيام حياته ٠

وكانت « روبنسون كروزو » أول هذه الأعمال فى مدى أربعة أشهر ، على كتابة جزء ثان مكمل لها أسماه « مغامرات أخرى لروبنسون كروزو » لم يصب ، على عادة مثل هذه الأجزاء المكملة كثيرا من النجاح ، ولكنه أتبعه فيما بعد بجزء ثالث أسماه « تأملات جدية فى حياة روبنسون كروزو » لم يكن حظه فى ذلك خيرا من حظ سابقه ٠ وتوالت بعد ذلك أعماله الروائية الأخرى التى حجب نجاح « روبنسون كروزو » كثيرا من قيمتها

وأهميتها ، اذ يستحق بعضها على الأقل من العناية والتقدير أكثر مما يناله فعلا من ذلك • وأهم هذه الأعمال هي :

« حياة كابتن سنجلتون » ، و « تاريخ حياة ومغامرات السيد دنكان كامبل » (١٧٢٠) ، « مول فلاندرز » ، « تاريخ سنة الطاعون » (١٧٢٢) ، « حياة الكولونيل جاك » (١٧٢٣) ، « مذكرات فارس » ، و « روكسانا » (١٧٢٤) ، و « رحلة جديدة حول العالم » (١٧٢٥) ، « حياة كابتن جورج كارلتون » (١٧٢٨) •

وتعتبر الآن « مول فلاندرز » ، و « تاريخ سنة الطاعون » ، و « روكسانا » أهمها • ويذهب كثير من النقاد الى أن « مول فلاندرز » احدى روائع الأدب الانجليزى الروائية على الاطلاق • وهى قصة امرأة ساقطة ، دفعتها ظروفها وفقرها الى ارتكاب كثير من الآثام التى طالما تابت عنها ثم ما لبثت أن عادت اليها ثانية مدفوعة بدافع الفقر تارة وبدافع من طبيعتها العاطفية الدافئة العابثة المحبة للهو مرة أخرى •فقد ولدت فى سجن ثم خدعت فى مطلع شبابها وتنقلت بعد ذلك بين المحبين والأزواج وكذبت وسرقت وسجنت مرات وأخيرا تابت توبة نهائية ولزمت حياة الخلق والاستقامة قبل أن يدركها الموت • وقد يخيل لنا لأول وهلة أن قصتها لا تعدو قصة « مغامرة أنثى » على غرار قصص الأشرار البيكارية التى أشرنا اليها من قبل • ولكن الواقع غير ذلك ، فقد تمكن ديفو هنا من خلق شخصية انسانية حية كاملة الاستدارة ، تشد الانتباه

القارىء وتبعث في نفسه السرور بالرغم من الظروف غير البطولية التي توجد بها والتي تخلو من الغرابة التي يعتمد عليها كتاب قصص المغامرات . فهو يعتمد بدلا من ذلك على صدق تصويره لحياة تلك المرأة وكشفه عن طبيعتها وجوانب شخصيتها التي تجعل منها انسانية حية طبيعية تثير الاهتمام لا بمغامراتها ، بل لمجرد كونها امرأة . ولعل صدق الصورة التي يقدمها ديفو يرجع الى حد كبير الى صدق « مول فلاندرز » نفسها وعدم خجلها من التعبير عن مشاعرها ورغباتها والاعتراف بسعيها لتحقيق الحياة الرغدة بأية وسيلة كانت ، والى اصرار ديفو على نقل كل ما من شأنه استكمال هذه الصورة دون حذف أو تهذيب . ومما يرفع من قيمة هذه الصورة من الناحية الفنية أن رغبة ديفو التي يعلنها صراحة في الدعوة الى المبادىء الخلقية القويمة لا تفسد عليه عمله . فهو يبدى تسامحا وفهما لتلك المرأة الخاطئة واستعدادا لقبولها كما هي ، مما يؤكد ما ينكره عليه بعض نقاده ، من معرفة بالطبيعة الانسانية وقدرة على الخلق والابداع ترفعانه بعيدا عن مستوى الصحفي الذى يكتفي بالنقل الحرفي للحقائق دون معرفة حقيقية بالنفس الانسانية .

وما يقال عن « مول فلاندرز » يمكن قوله بدرجات متفاوتة عن « روكسانا » وعن « الكولونيل جاك » ، و « كابتن سنجلتون » وغيرهما من الشخصيات العديدة التي تنبض بالحياة بين صفحاته . أما « روكسانا » فتبدأ

حياتها أحسن حظا من « مــول » ، فتتزوج في سن الخامسة عشر ولكن زوجها سرعان ما يفلس تاركا لها خمسة أطفال فتنحـــدر الى مهـــاوى الرذيلة • أما كابتن ســنجلتون والكولونيل جــاك فيسرق الأول ويباع للغجر في طفولته وينشأ الثانى على يدى نشال • وفي جميع هذه الأعمال يقدم لنا ديفو شخصيات من واقع الحياة ، حتمت عليهـا ظروفها أن تناضل وتجاهد ، بل وأن تخطىء وتجرم أحيانا في سبيل العيش والبقاء ولكنها تنتصر في النهاية نتيجة لجدها وكفاحها ، وحسن حظها •

ومن العوامل التي ساعدت على نجاح هذه الأعمال من ناحية وقيام فن الواية من ناحية أخرى اشباع ديفو لرغبة القراء الذين ينتمون في الغالبية العظمى الى الطبقة المتوسطة في القراءة عن أنفسهم أو من يشبههم من الناس واهتمامه بالناحية الخلقية واقنـــاع القارىء المهتم بهذه الناحية بأن للقصة هدف خلقي •

روبنسون كروزو

والعنوان الكامل لهــذا الكتاب هو « حياة ومغامرات روبنسون كروزو الغريبة المدهشة » • ويعتقــد البعض أن ديفو قد اقتبس موضوع قصته عن قصة واقعيــة ، وقعت أحداثها لبحار اسكتلندى يدعى ألكسندر سيكليرك ذهب في عام ١٧٠٥ بصحبة الربان المعروف وليم دامبير

فى رحلة الى البحار الجنوبية ، ولكنه اختلف مع هذا الربان فتركه هذا فى جزيرة خاليـــة من السكان هى جزيرة جوان فرناندز بالقرب من الشاطىء الغربى لأمريكا الجنوبية حيث بقى بمفرده حتى عام ١٧٠٩ عندما حملته الى انجلترا احدى قطع الأسطول الملكى • وسواء اعتمد ديفو على هذه القصة أو على غيرها من قصص الرحـالة التى كثرت فى تلك الأيام فان ذلك لا يقلل من قيمــة عمله شيئا فقد خلق عملا جديدا مبتكرا يختلف عن تلك القصة تمام الاختلاف ، عملا خلده على مر الزمن بينمـا اندثرت معظم تلك الأعمال التى يقال ان ديفو قد اعتمد عليها • ولعل من حسن حظه أن اختار لنفسه موضوعا يثير الخيال فى جميع الأجيال والأزمان ، ولكن مما لا شك فيه أن نجاح « روبنسون كروزو » يرجع الى عوامل أخرى كذلك •

وتحكى « روبنسون كروزو » قصة حياة رجل خاض كثيرا من المغامرات ، كان أهمها اقامته بمفرده فى جزيرة نائية مدة ثمانية وعشرين عاما وشـهرين وتسـعة عشر يوما • ومما يميز هذه القصة : أولا : أن المغامرة الكبرى وهى اقامة هذا الرجل بمفرده فى تلك الجزيرة لا تقدم على أنها موضوع القصة ، بل على أنها احدى المغـامرات الكثيرة التى خاضها • ثانيا : أنه طيلة تلك القصــة ، وبالرغم مما احتوته من غرائب وأحداث مثيرة فان التركيز يبدو واقعا على شخصية البطـل نفســه وعلى سـلوكه

وأفكاره ومشاعره تحت تلك الظروف القاسية التى يجد نفسه فيها • أما هذا البطل فهو شخص واقعى من أواسط الناس لا يميزه سوى جده وجلده واعتماده على النفس وهى صفات يشاركه فيها كثير من أبناء طبقته • فاذا ما تذكرنا أن ديفو قد زعم فى مقدمة كتابه أنه يقدم وقائع حقيقية لا دخل للخيال فيها أدركنا لماذا تعين عليه أن يقنعنا بواقعية قصته قبل أن يلقى بنا فى سلسلة الأحداث و « المغامرات الغريبة المدهشة » التى يشير اليها عنوان القصة • لذا يبدأ الكاتب بتثبيت شخصية روبنسون كروزو فى عالم الواقع عن طريق حشد عدد كبير من التفاصيل الدقيقة التى توحى بجو من الواقعية والصدق ، وكأنى به فى سبيل اقناع القارىء بكذبته الكبرى يسوق أولا عددا من الكذبات الصغيرة أن يتقبلها القارىء دون جهد أو شك لأنها تبدو كالصدق •

وتوكيدا لذلك الجو من الصدق والواقعية يستخدم الكاتب طريقة ضمير المتكلم لسرد القصة أى أنه يضعها فى شكل الترجمة الذاتية التى تقوم فيها الشخصية الرئيسية بدور الراوى فتكتسب بذلك قدرة أكبر على اكتساب ثقة القارىء واقناعه بصدقها • فلنر اذن كيف يقدم كروزو نفسه للقارىء :

« لقد ولدت فى مدينة يورك فى عام ١٦٣٢ من أسرة طيبة ، وان لم تكن من أهل هذا البلد ، فان والدى أصلا

من أهل بريمن ولكنه انتقل الى « هل » أولا حيث كون لنفسه ثروة عن طريق التجارة ثم ترك تجارته وعاش بعد ذلك في يورك ـ وهناك تزوج من أمي التي كان يدعى أهلها روبنسون وهم أسرة طيبة جدا في هذا البلد ، وعنهم أخذت اسمي روبنسون كروتزنر . ولكن نتيجة لما يحدث من تحريف للكلمات في انجلترا فنحن نسمى الآن ، أو على الأصح نسمي أنفسنا ونكتب اسمنا « كروزو » وهكذا يسميني رفاقي دائما .

« كان لى أخوان أكبر مني سنا . كان أحدهما مقدما في فرقة انجليزية في هولندا تحت قيادة العقيد المعروف لوكهارت ، وقتل في المعركة التي وقعت قرب دنكرك ضد الأسبان . أما أخي الثاني فلم أعرف مطلقا ما حدث له تماما كما لم يعرف والدي ما حدث لى أنا ! » (١) .

وهكذا ينسب الكاتب بطله لأسرة وأبوين واخوة موردا أثناء ذلك بعض التفاصيل الواقعية ، قبل أن ينتقل ليعرفنا بالبطل نفسه :

« ولكوني الابن الثالث لأسرتي ولأني لم أتعلم أية حرفة فقد بدأ رأسي يمتلىء منذ وقت مبكر بأفكار السفر والتجول . وكان والدي ـ الذي كان مسنا جدا ـ قد كفل لى قدرا كافيا من التعليم أي بالقدر الذي يمنحه

---

(١) روبنسون كروزو » (طبعة كوليلنز ١٩٦١) ، ص ١٧ .

التعليم فى المنزل أو فى مدرسة ريفية مجانية عادة ، وقرر أن أعمل بالقانون .. ولكننى لم أكن لأرضى بغير حيـــاة البحر بديلا ، ولذا فقد دفعنى ميلى لهذه الحياة لأعرض عن توسلات أمى وأهلى ومحاولاتهم لاقناعى بالرجوع عن ذلك ، لدرجة كان يبدو معها أن هناك أمرا مقدرا فى هذا الميل الطبيعى الذى يدفعنى مباشرة لحيـاة الشقـاء التى كانت تنتظرنى » ٠

ثم ينتقل الكاتب تدريجيا الى الظروف التى أحاطت بأول رحلة لهذا الفتى والتى ارتبطت فى ذهنه بعصيانه لوالديه وخشيته من غضب السماء وما قد تنزلـه به من عقاب ٠ فهو يخبرنا أولا كيف حاول والده أن يثنيه عن عزمه مبينا له أن لا حاجة به للسفر والمغامرة فى سبيل المال ، اذ يمكنه أن يحيا حياة رغدة دون أن يترك بيته وأهله ، وموضحا له مزايا الحياة الوسطى وأنها خير من الفقر الشديد كما أنها خير من الثروة الطائلة ٠ وجدير بالملاحظة ، أن روبنسون كـروزو يقرر منذ البدايـة أن الدافع للسفر والتجول لم يكن مجرد الميل الى التنقـل ورؤية العالم ، بل هو السعى وراء الثروة والربح وتحسين المركز ٠

وينصت كروزو الى نصيحة والده أول الأمر ولـكن ما يلبث أن يعاوده الحنين الى البحر فيذهب الى والدتـــه راجيا اياها التوسط له لدى والده ولكنها ترفض ذلـك

مؤكدة له أن والده لن يسمح له بالسفر ولن يبارك خطته مهما يكن من أمر . ثم هي تبدي عجبها لمعاودة ابنهـا الكرة بعلما كان بينه وبين والده من حديث أبوى رقيق. ويفقد كروزو الأمل في موافقة والديه فيترك التفكير في الأمر فترة من الوقت ، ولكن تغلبه الرغبة الجامحـة الى المغامرة في النهاية فيذهب لا يلوى على شيء هذا بالرغم من ادراكه لخطئه وتخوفه من نتيجته . وها هوذا يصف بده حياته الحافلة بالمغامرات :

« ولم أفلت الا بعد سنة تقريبا من ذلـك الوقت . ولو أني طيلة هذا الوقت لم أكف عن رفض أية مقترحات بشأن اشتغالي بأي عمل . وكثيرا ما كنت ألـوم والدى ووالدتي لاصرارهما الشديد على رفض ما كانا يعلمان أن ميولي تمليه على . ولكنى عندما كنت يوما في « هل » ، حيث ذهبت عرضا ودون نية للهرب في تلك المرة ، فقد حدث أن كان أحد أصدقائي على وشك الابحار الى لندن في سفينة والده وعرض على الذهاب معه مستخدما لاغرائي تلك الكلمات المعروفة للبحارة وهي أن الرحلة لن تكلفني شيئا . فلم أستشر أبا أو أما مرة أخرى ، ولم أبعث اليهما بكلمة عن الأمر ، بل تركتهما ليسمعا به كيفمـا اتفق ، ودون أن أطلب بركة الله أو بركة والـدى ودون أي اعتبار للظروف أو النتائج . وفي ساعة « نحس » يعلم الله ، ركبت في أول سبتمبر ١٦٥١ سفينة مصوبة نحو لندن . واني أعتقد أنه ما من مغامر حدث قد بدأت

مصائبه بسرعة أكثر مما بدأت مصائبى أو استمرت مدة أطول مما استمرت مصائبى • اذ ما كادت السفينة تخرج من الهمبر حتى أخذت الرياح تهب والأمواج ترتفع بطريقة مخيفة للغاية • ولما كنت أبحر لأول مرة فقد أصابنى الدوار والفزع بشكل لا يعبر عنه • وبدأت الآن جديا فى التفكير فيما فعلت وكيف نزل بى قصاص السماء العادل نتيجة لخطىء الفادح فى تركى لبيت والدى والهرب من واجبى • وتذكرت الآن نصيحة والدى القيمة، ودموع والدى وتوسلات والدتى ، لامنى ضميرى الذى لم يكن بعد قد بلغ تلك الدرجة من التحجر التى بلغها فيما بعد • لامنى لاحتقارى النصيحة واهمالى لواجبى نحو الله ونحو والدى »(٢) •

وكأنما تعبر هذه الفقرة مقدما عما سيلحق بكروزو نتيجة لفعلته هذه بحيث نشعر عندما نجده فى « جزيرة الأسى » بمفرده فيما بعد أن ذلك كان متوقعا • ونلاحظ هنا بوجه خاص انزعاج كروزو وتفكيره فى خطئه وشعوره بالاثم • ويلاحقه هذا الشعور بالاثم طيلة مغاراته ويقوده تدريجيا عندما يدرك مدى عناية الله به الى علاقة أقرب وأوثق بالله • ويمثل هذا الشعور أحد الجانبين الهامين فى شخصيته ، فهو انسان واقعى يسعى الى الثروة من ناحية وانسان دين من ناحية أخرى • أما فى بادىء الأمر

(٢) « روبنسون كروزو » ، ص ٢٠ •

فان تدينه لا يعدو أن يكون عادة أو أمرا آليا ، أما بعد أن يمر بتجربته القاسية فانه يدرك أن يد الله وراء كثير مما يحل به من أحداث فيركع ساجدا لله شاكرا له عنايته به ، وتتغير نظرته الى الدين فيشعر بوجود الله شعورا قويا مختلفا ، ويصبح الدين علاقة حية بينه وبين خالقه . ولعلنا نرى هنا أثر تربية ديفو نفسه الدينية :

فاذا عدنا الى أحداث الرواية وجدنا أن تلك العاصفة التى تغرق أول سفينة يركبها كروزو ليست سوى الأولى فى حياته ، تتبعها ثانية وثالثة نتيجة لتصميم هذا الشاب الغر على متابعة مغامراته دون أى اعتبار جدى لتلك التحذيرات التى كانت تبدو له جلية واضحة كلما شعر بخطر البحر ثم تتضاءل أهميتها وتخف حدة تأثره بها بعد زوال الخطر ومرور قليل من الوقت . ففى كل مرة يتعرض فيها للخطر كان ينذر أن يعود الى أهله طالبا الصفح والغفران اذا كتبت له النجاة ، ولكنه سرعان ما كان ينسى ذلك ويعاود الكرة المرة بعد الأخرى .

ولعل من سوء طالعه أن رحلته الثانية التى قام بها تجاه ساحل أفريقيا كانت ناجحة مربحة ، فأغرته بالقيام برحلة أخرى الى جزر كنارى كانت نتيجتها أن وقع فى أيدى جماعة من القرصان وبيع كعبد . ولكنه تمكن أخيرا من الهرب باستيلائه على قارب سيده الذى كان يرسله فيه أحيانا للصيد ، ساعده فى ذلك خادم صغير يسمى

اجزورى . ويقضي كروزو فترة من الزمن فى هذا القارب ملازما ساحل أفريقيا الى أن تلتقطه سفينة برتغالية هو وخادمه الصغير وكل ما يحمل من متاع الى البرازيل . وهنا يعرض كروزو على ربان السفينة كل ما يملك لقاء انقاذ حياته ولكن هذا يرفض ذلك محتجا بأنه لم ينقذ حياته من الهلاك فى البحر ليتركه يهلك جوعا على البر فى بلاد غريبة ، ولكنه يطلب منه أن يبيعه قاربه وخادمه وبعض الأشياء الأخرى التى يرغب فى الاستغناء عنها فيفعل ذلك شاكرا . وهنا نلاحظ أن كروزو لم يتردد كثيرا فى بيع خادمه الصغير الأمين ولا يلوم نفسه حقا الا عندما يشعر بالحاجة الى خادم آخر حين تستقر به الأمور فى البرازيل ويشترى مزرعة وتأخذ زراعته فى الاتساع . فهنا فقط يتذكر اجزورى وكيف باعه ويحزن لذلك ، ولكنه سرعان ما يبرر عمله قائلا : انه لم يكن بوسعه أن يرفض للربان طلبا .

وهنا نرى احدى صفات كروزو المميزة فهو لا يفتأ يحلل أعماله ويناقشها ويحاول تبريرها أمام نفسه . وما ذلك فى الواقع الا وسيلة من وسائل بناء الشخصية التى يستخدمها ديفو . فهو لا يكتفى بتقديم صورة مفصلة لما يقع لكروزو من أحداث وما يقوم به من أعمال ولكنه يكشف لنا عما يدور بخاطره من أفكار وأحاسيس وان لم يبلغ ديفو فى ذلك درجة كبيرة بالمقارنة بمن تبعه من الروائيين ، الا أنه قد خطا الخطوة الأولى فى هذا المضمار ،

فعمل على توضيح ملامح شخصيته وتعميق أبعادها بحيث يمكننا القول بأن موضوع العمل القصصي لم يعد المغامرات فحسب ، بل أصبح الشخصية أو الشخصيات وهو ما يتفق النقـــاد على أنه الركن الرئيسي للرواية التى تهدف كفن لتصوير الحياة الانسانية • فما الأحداث ســوى العوامل والملابســات التى تبرز الشخصية وتكشف عن معالمها • فاذا أردنا مثلا لذلك فنلستمع لكروزو مرة أخرى بعد أن اتسعت مزارعه بالبرازيل وأخذ يلوم نفسه لتفريطه فى الصبى اجزورى لنعلم الى أى مدى هو دائم اللوم لنفسه ، دائم التطلع لشىء آخر :

« ولكن وأســفاه ! فما من غرابة فى أن أخطىء أنا الذى لا أصيب أبدا • ولكن ما من علاج للموقف سوى أن أستمر ، فها أنذا قد اتخذت لى عملا بعيدا كل البعد عن ميولى ومضادا تماما للحياة التى تدخل البهجة الى نفسى والتى من أجلها تركت بيت أبى ورميت بنصيحته عرض الحائط • نعم ، فها أنذا مقبل على ذلك المركز المتوسط أو الدرجة العليا من الحياة الدنيا التى نصحنى بها والدى من قبل ، والتى اذا ما قررت قبولها لكنت الآن فى بيتى وما كنت تكبدت فى الدنيا من المتاعب ما تكبدت • وكثيرا ما كنت أقول لنفسى لقد كان بوسعى أن أفعل تماما فى ... انجلترا وبين أهلى ما ذهبت ٥٠٠٠ ميلا بعيدا لأفعله بين الأجانب والمتوحشين فى هذا القفر وعلى مثل هذه المسافة

التى لا يمكن عندها سماع أية أخبار من أى جزء من العالم يعرف عني شيئا » (٣) ٠

« وهكذا كنت أنظر الى حالتى بأشد الأسف ٠ فلم يكن هناك من أتحدث معه سوى هذا الجار من وقت لآخر ٠ ولم يكن هناك من عمل أقوم به غير العمل اليدوى وكنت أقول لنفسى انى أعيش تماما كانسان ملقى به بعيدا فى جزيرة قفراء بمفرده ٠ ولكن كم هو من العدل وكم يجب أن يفكر الناس أنهم عندما يقارنون ظروفهم الراهنة بظروف أخرى أسوأ ، فان السماء قد تجبرهم على تغيير تلك الظروف حتى يتأكدوا عن طريق تجربتهم الشخصية من سعادة ظروفهم السابقة ٠ وانى أكرر أنه لمن العدل أن الحياة الانفرادية الحقة التى تصورتها فى جزيرة قفراء قد آل اليها مصيرى أنا الذى قارنتها ظلى بالحياة التى كنت أحياها حينذاك والتى اذا ما استمررت بها لأصبحت على أغلب الظن ناجحا جدا وغنيا جدا » (٤) ٠

ويتضح ذلك الميل الى السفر والتجول مرة أخرى عندما يترك ديفو مزارعه الناجحة ويواصل مغامراته ٠ ذلك انه نظرا لحاجته وبعض جيرانه من المزارعين للخدم ونظرا لما كان كروزو قد ذكره لهم عن وجود كثير من السود الذين يمكن استحضارهم من افريقيا واستخدامهم فى مثل

(٣) « روبنسون كروزو » ؛ ص ٤١ ٠

(٤) ص ٤٢ الجار المشار اليه مزارع من أصل انجليزى كان يقيم بالقرب منه ٠

هذه الأعمال فان بعض هؤلاء المزارعين يعرضون عليه أن يعدوا له سفينة ليذهب لاحضار بعض هؤلاء العبيد على أن يقوموا هم بدفع نفقات الرحلة والاشراف على مزارعه أثناء غيابه · وبعد تردد قليل يوافق كروزو على مقترحاتهم ، فيقضي بذلك على كل ما كان ينتظره من استقرار وثروة · ولكنه يدرك تماما أنه كان بارادته سبب كل ما أصابه من شقاء « فكل هذه المصائب والاخفاقات كانت نتيجة لتمسكي الواضح العنيد بميلي الأحمق للتنقل في الخارج ولمتابعة ذلك الميل معارضا بذلك أوضح الأمور لمصلحتي ولتحقيق بوادر الحياة الناجحة التى اتفقت الطبيعة والسماء على منحها لي وجعلها من واجبي » (٥) ·

وهكذا يصل بنا ديفو الى أهم حدث في القصة وهو تحطم سفينة كروزو في عاصفة عاتية ونجاته بمفرده ليقضي الجزء الأكبر من ٢٨ عاما في جزيرة خالية من السكان بعيدا عن طرق الملاحة المعروفة · ومرة أخرى يؤكد لنا كروزو مسئوليته عما حدث له ويشير الى أن رحلته هذه قد بدأت في اليوم الأول من سبتمبر ١٦٥٩ وهو نفس اليوم الذى ترك فيه أبويه ليذهب الى « هل » قبل ذلك التاريخ بثماني سنوات ·

ومما يلاحظ اهتمام ديفو بالتواريخ في هذه القصة · فكروزو يذكر تاريخ كل حادث هام في حياته ويربطه

(٥) ص ٤٣ـ٤٤ ·

بغيره ليستنتج من ذلك أن هناك أكثر من عامل الصدفة وراءها ، هذا من ناحية • أما من الناحية الأخرى فان هذه الدقة في تحديد الأزمنة هي أحد أوجه الأسلوب الذي يستخدمه ديفو ويعتمد فيه على التفاصيل الدقيقة المحسوسة التي تساعد في مجموعها على خلق جو من الواقعية والصدق حول ما يبدو في القصة من مستحيلات ومن أمثلة ذلك أن كروزو عندما يكتشف أنه نجا من الموت بأعجوبة وأنه الوحيد الذي نجا فانه يخبرنا ببساطة لا تترك فرصة للشك وان كانت تدعو للعجب والأسى : « أما عن الباقين فلم أرهم قط بعد ذلك ولا أي أثر لهم ، فيما عدا ثلاث قبعات • وغطاء للرأس وفردتي حذاء مختلفتين » (٦) أو عندما يدرك أن هذه النجاة انما هي نجاة مخيفة ، فملابسه مبللة وليس لديه غيرها ليبدلها وليس لديه ما يأكله أو يشربه وليس لديه سلاح يصطاد به شيئا يقتات به أو يدافع به عن نفسه ضد أي مخلوق قد يرغب في أن يتغذى به : « فبالاختصار ، لم يكن معي سوى سكين وغليون وقليل من التبغ في علبة » • هذا بينما الوقت مساء والليل على الأبواب • كل هذه التفاصيل الملموسة تساعد على تصوير الأحداث وتعاون القارىء على « أن يمارس عن رضى ايقاف ميله لعدم التصديق » كما يقول كوليردج •

وينجح ديفو في اثارة اهتمام القارىء لهذا الموقف عن

(٦) ص ٥٠ •

طريق الوصف الدقيق المفصل لكل ما يقوم به كروزو من أعمال وما يدور بخاطره من أفكار واحساسات مبديا عبقرية نادرة في التفكير في كل ما يمكن أن يعن للمرء من تفاصيل هامة تخدم هدفه ٠

أما كروزو فسرعان ما يواجه الموقف ، بعد نوم ليلة هادئة في أعلى شجرة كبيرة ، بواقعية وشجاعة ، فما يكاد يلمح السفينة التي ظنها قد غرقت مرتطمة بالصخور على مقربة من المكان الذى ألقت اليه به الأمواج حتى يسرع اليها وينقل منها كل ما يمكن وكل ما يحسب أنه سيحتاج اليه في اقامته التي يتصـــور مقدما أنها ستكون اقامة طويلة قاسية ، مبتدئا بالأهـم فالأقل أهمية ، ويعرفنا بدقته المميزة أنه ذهب الى السفينة احدى عشرة مرة أثناء الثلاثة عشر يوما التى بقيتها السفينة على الصخور قبل أن يبتلعها اليم ٠ ثم ينتقل لوصف اختيـاره للمكان المناسب لاقامة مسكن له ذاكرا كل الاعتبارات التي كان عليه مراعاتها وكيف عمل على المحافظة على سلامة « بضائعه » من التلف ، ثم كيف نظم أوقاته بحيث جعل للعمل وقتا وللراحة وقتـا وللصيد وقتـا وللعمل بمكان اقامته وقتـا آخر ، ثم كيف بدأ بصناعة أدوات بسيطة وتدرج منها الى صناعة أدوات أخـرى أكثر تعقيدا ثم كيف استأنس بعض الماعز وأعد الأرض لزراعة بعض الحبـوب وكيف حصن مسكنه وأقام حوله سياجا من الأشجار ثم كيف نقل بعض ممتلكاته الى

كهف بعيد خوفا عليها من الأمطار وخشية أن يدهم مسكنه خطر مفاجيء فيفقد كل شيء ٠ »

ويفلح ديفو فى اقناع القاريء بحقيقة هامة هى مرور الزمن ، وهو عامل الوقت فى تلك الجزيرة ٠ ويفعل ذلك في باديء الأمر عن طريق المذكرات اليومية التى يدونها كروزو ولكن سرعان ما يستهلك كل ما وجده فى السفينة من مداد ولا يجد وسيلة لصنع غيره ٠ ولذا فهو يعتمد أساسا على سائل أقل آلية من ذلك ، فيوحى للقاريء بمرور الزمن عن طريق غير مباشر بالاشارة الى تكاثر قطيع الماعز الذى استأنسه مثلا ، أو الى تزايد عدد القطط التى توالدت من قطتين أنقذهما من السفينة حتى اضطر الى قتل معظمها ، أو الى تعلم ببغاء استأنسه وحاول تعليمه بضعة كلمات حتى صار قادرا على تكرار بعض الجمل بكل وضوح ، أو الى زيادة محصول القمح ٠ والأرز الذى يبدأ ببضع سنابل نمت من بضع حبات ألقى بها عفوا عند نفض كيس كان يحوى بعض المواد الغذائية التى أحضرها من السفينة ، وتزايدت مع السنوات حتى أصبحت كافية لأن يصنع منها ما يكفيه من الخبز الذى حرم منه لعدة سنوات ، أو الى تكاثف الشجيرات التى غرسها حول مسكنه حتى أصبحت سدا منيعا يستحيل اختراقه دون تسلق احدى الأشجار أو اقتلاعها ٠ كما يشير أيضا الى عدد الأيام أو الأسابيع أو السنوات التى تستلزمها صناعة شيء معين ، فصناعة منضدة مثلا تستغرق أسابيع بينما يستغرق حرث مساحة

من الأرض بأدواته البـــدائية شهورا ، أما قطع شجرة واعدادها وصنع قارب منها فيستلزم سنوات • ويبـدو كروزو شديد الاهتمام بالزمن بالرغم من وحدته وتشابه الأيام وعدم توقعه حدوث أمر جديد • ولكنه يخبرنا من بادىء الأمر أنه قام بحســاب السنوات التى قضــاها فى الجزيرة وأنه كان يحتفل سنويا بذكرى مجيئه اليها بالصلاة وتقديم الشكر لله ، كما يخبرنا فى مكان آخر من القصة أن حسابه كان دقيقا لدرجة أنه عندما عاد الى العالم الخارجى وجد أنه لم يخطىء ســوى فى يوم واحد يرجح أنه نامه بأكمله أثناء فترة مرض ، ونتيجة لتناوله جرعة كبيرة من التبغ على سبيل الدواء • وهاك مثلا لكيفية اشارته الى مرور الزمن :

« لقد كنت الآن فى السنة الثالثة والعشرين من اقامتى فى هذه الجزيرة ، وكنت قد تكيفت للمكان وطريقة الحياة فيه ، حتى أنه لو أمكننى التأكد من عدم مجىء متوحشين اليه لازعاجى لكنت قد ارتضيت بقضاء بقية أيامى هناك ، حتى الى آخر لحظة ، الى أن أرقد وأموت مثل ذلك الماعز الكهل (الذى رأيته) فى الكهف • كما كنت قد توصلت الى بعض وسائل الترفيه والتسلية التى جعلت الوقت يمر بشــكل ألطف بكثير عن ذى قبل •• لقد علمت ببغائى « بول » الكلام كما أشرت من قبـــل ، وكان يتكلم الآن بسهولة ، وينطق الكلمات بوضــــوح ، مما كان يسرنى كثيرا ، وعاش معى « بول » ما لا يقل عن ستة وعشرين

عاما ، ولا أدرى كم من الزمن كان يمكن أن يعيش بعد ذلك ، فأنا أعلم أنهم يظنون في البرازيل أن الببغاوات تعيش مائة عام • ولعل « بول » المسكين ما زال حيا هناك للآن ، ينادي روبنسون كروزو المسكين الى هذا اليوم •• أما كلبى فكان رفيقا سارا ومحبا لى فترة لا تقل عن ستة عشر عاما ، ثم مات من الشيخوخة » (٧) •

ويظهر ديفو براعة فائقة في سرد قصته بحيث يحتفظ بانتباه القارىء وتشوقه فروبنسون كروزو يملأ بنشاطه وسعة حيلته الأيام المتتالية بالأعمال المختلفة التى تتفاوت بين صنع رداء من جلد الحيوان الى صنع غليون من الطين الى محاولة جريئة لاستكشاف سواحل الجزيرة •

وهكذا تمضي الحياة آمنة مستقرة بوجه عام وان كانت لا تخلو من مفاجآت وصعوبات ومخاطر يقابلها جميعا كروزو بشجاعة وصبر ، الى أن يحدث يوما ما يفزع هذا البطل ويقض مضجعه بحق • ولنتركه يصف لنا هذا الحدث في فقرة من أشهر فقرات الكتاب :

« حدث ذات يوم حوالى الظهر وأنا متجه نحو القارب أن هالنى على الشاطىء أثر قدم رجل عارية ، يمكن رؤيتها بوضوح على الرمل • فوقفت كشخص أصابه قصف الرعد أو كما لو كنت قد رأيت شبحا ، وأنصت وتلفت حولى

---

(٧) « روبنسون كروزو » ، ص ١٥١ •

ولكنى لم أسمع شيئا ولم أر شيئا ، وصعدت الى ربوة مرتفعة لأرى لمسافة أبعد وسرت على الشاطىء جيئة وذهابا ولكن ذلك لم يغير من الأمر شيئا ، فلم أر أى أثر آخر غير ذلك الأثر • فذهبت اليه مرة أخرى لأرى هل هناك آثار أخرى ولمعرفة ما اذا كنت قد تخيلت ذلك الأثر • ولكن لم يكن هناك مجال لذلك فقد كان هناك بالضبط ودون أدنى شك أثر قدم وأصابع وكعب وكل جزء من قدم • أما كيف جاءت الى هناك فلم أعرف ولا كان يمكننى أن أتصور ذلك على الاطلاق • ولكن بعد أن تنازعتنى أفكار شتى وكنت مثل رجل مضطرب وفى غير وعيه تماما عدت للمنزل الى حصنى وأنا لا أحس كما يقال بالأرض التى أمشى عليها ، بل كنت فى غاية الفزع ، أتلفت خلفى كل خطوتين أو ثلاث وأتوهم كل شجرة أو شجيرة أو جذع شجرة على بعد رجلا • غير أنه من المستحيل أن أصف كيف صور لى الخيال المنزعج أشياء كثيرة ولا كم من الأفكار الغريبة قد وجدت طريقها الى ذهنى طيلة الطريق •

« أما عندما جئت الى حصنى ، فهكذا أظننى قد سميته منذ ذلك الوقت فقد هربت الى داخله كشخص مطارد — وسواء كنت قد صعدت السلم كما كنت أفعل أولا أو دخلت من الفتحة التى فى الصخر والتى كنت أسميها بابا فلا أذكر ، لا ، ولا كان بوسعى أن أتذكر فى الصباح التالى ، فما من أرنب فزع قد هرب الى مخبئه أو ثعلب الى

جحره وهو أكثر اضطرابا مما جريت أنا الى هذا المخبأ » (٨) ٠

وهكذا يتابع القارىء كروزو بقلب واجف الى أن يكتشف معه أن جماعة من المتوحشين يؤمون الجانب الآخر من الجزيرة من وقت لآخر لاقامة احتفال يلتهمون فيه ما يحضرون من الأسرى ثم يذهبون تاركين وراءهم آثار فعلتهم البشعة ٠ ويضطرب كروزو ويقسم أن يعاقب أولئك المتوحشين ان هم حلوا بجزيرته مرة أخرى ولكن كثرة عددهم كانت تمسك يده الى أن حانت الفرصة فأنقذ من بين أيديهم أحد الأسرى واتخذه خادما له ، علمه اللغة الانجليزية ولقنه مبادىء الدين المسيحى فصار خير أنيس له فى وحدته ٠ وينقذ كروزو وخادمه فرايداى (نسبة ليوم الجمعة) عددا آخر من الأسرى ويشعر كروزو وكأنه أصبح ملكا لرعية صغيرة تعاونه وتأتمر بأمره فيفكر جديا فى محاولة للوصول الى شاطىء القارة الأمريكية التى يأتى منها هؤلاء المتوحشون ، الا أن سفينة انجليزية تعرج على جزيرته عرضا ، ويدرك كروزو أن بعض بحارتها قد خرجوا عن طاعة ربانهم وحاولوا الاستيلاء على السفينة وترك الربان وبعض رجاله على الجزيرة ، فينقذوه هو ورجاله من بين أيديهم ويسترجع له سفينته ، فيحمله هذا معه وخادمه الى انجلترا بعد أن يكون قد قضى فى الجزيرة ثمانى

(٨) ص ١٣١ ٠

وعشرين سنة وبعيدا عن وطنه خمسة وثلاثين عاما كاملة . ويعود كروزو ليجد نفسه غريبا فى وطنه فقد توفى والداه وتفرقت أسرته ، ولكنه يجد نفسه ثريا جدا فقد درت مزارعه في البرازيل أرباحا طائلة الا أنه بالرغم مما حقق من ثراء وما قد قاسى من أهوال فانه يعود للسفر مرة أخرى مدفوعا كما يخبرنا فى الجزء الثانى من رحلاته ، لا بحب المال فحسب كما يتضح لنا الآن ، ولكن بتلك الرغبة الملحة فى السفر والترحال .

تلك اذن هى قصة كروزو التى ما زالت تثير الخيال وتجتذب القراء من جميع الأجناس والأعمار ، فما سر عظمتها ؟ وما سر خلودها ؟ والى أى مدى أثرت فيما تلاها من أعمال ؟

لقد كتب روسو يقول : ان « روبنسون كرزو » هو الكتاب الوحيد الذى يمكن أن يعلم كل ما يمكن أن تعلمه الكتب » . وأضاف أن اميل « بسيقرأ هذا الكتاب قبل أن يقرأ أى كتاب آخر وأنه سيبقى الكتاب الوحيد فى مكتبته لمدة طويلة ، كما سيشغل دواما مكانا فى الصدارة » .

أما اذا أردنا حكما أكثر موضوعية فلنستطلع آراء بعض كبار نقاد الرواية . يشير والتر ألين الى نقطة هامة عندما يقول : « ان ديفو يضع التركيز طيلة الوقت لا على الجزيرة أو على الأخطار التى تحيط البطل ، بل على كروزو نفسه

كرجل ٠٠ ان كروزو هو الذى يملأ الصـــورة وهو يفعل ذلك بصفاته البطولية حقا ، كرجل يسود الطبيعة » (٩) ٠

ثم يضـيف أن كروزو أول ممثـل للفردية ولكنه يقنعنا بفرديته لأنه لا يختلف عن غيره من الناس ويذكرنا بقول كوليردج الشاعر الانجليزى المعروف من « أن كروزو لم يبلغ درجة فائقة من المهارة فى كل ما فعله ، فهو يجيـد النجارة والحياطة وصناعة الآنية الفخارية بالقدر الذى يسد حاجاته فقط ٠ فهو يبلغ الدرجة التى يشعر جميع الناس أنهم يستطيعون بلوغها » ، ولعل هذا هو سر اجتـذابه للقراء فهو كما يقـول كوليردج أيضـا : « يمثل العالم بأجمعه ٠ فهو الشـخص الذى يمكن لكل قارىء أن يضع نفسه مكانه » ٠ وبالرغم من أنه يمثل كلا منا الا أنه صنع المعجزات وتمكن بمفرده ودون أدنى معونة أن يتحكم فى ظروفه ينتصر على الطبيعة ٠

أما النقطة الهامة الثـانية فهى أن ديفو استطاع أن يجعل من شخصية كروزو شخصية مقنعـة فنيا ٠ وهنا أيضا يتفق النقاد على أنها شخصية كاملة بشكل واضح هذا علما بأن هناك مناطق بأكملها من الخبرات الانسانية التى لا تدخل فى نطاقها ٠ ولكن ديفو قد أحسن تصوير النواحى التى تناولها لدرجة تمكننا من تصور تلك التى لم يتناولها ٠

---

(٩) ص ٣٩ :
Walter Allen, *The English Novel* (1958) :

وجدير بنا أن نؤكد هنا أنه ليس من العدل أن نتهم ديفو ، كما يفعل البعض ، بجهله بأهمية الناحية الشكلية والفنية • فاختياره للشكل السردى المناسب لقصته وتسخيره للترجمة الذاتية الخيالية لأغراضه ، فى الوقت الذى لم تكن فيه حتى الترجمة الذاتية الحقيقية معروفة لأكبر دليل على عبقريته (١٠) • أما ابداعه فى خلق ذلك الجو من الواقعية والصدق القائم أساسا على دقة الملاحظة واختيار التفاصيل فهو ما يذكره له جميع النقاد ومؤرخى الأدب بالاعجاب والثناء •

أما أهمية « روبنسون كروزو » من الناحية التاريخية فلندلل عليها من أقوال ايان وات مؤلف نشأة الرواية • يرى وات أن نشأة الرواية مرتبطة بعاملين هامين هما : ازدهار المذهب الواقعى وانتشار المذهب الفردى • وترجع أهمية «روبنسون كروزو» الى أنها أول عمل قصصى تتمثل فيه الفردية والواقعية خير تمثيل (١١) •

فكروزو شخصية واقعية تختلف عن أبطال القصص

---

(١٠) انظر أولا : المرجع السابق ، ص ٣٩ •

ثانيا : الجزء الأول ص ٥٩ من :

Arnold Kettle, *An Introduction to the English Novel* (1961).

(١١) انظر ص ٦٠ـ٦٢ من (١٩٦٠) •

Ian Watt, *The Rise of the Novel* (1960).

الرومانسية من ناحية وشخصية تمثل الفردية الاقتصادية من ناحية أخرى ·

ويذهب وات الى أن كروزو يمثل الفردية الاقتصادية أكثر من أى شيء آخر ، فحب المال هو الدافع الرئيسى لجميع أعماله لذا فان العلاقات الاجتماعية وحتى علاقته بالله تأتى فى المرتبة الثانية · أما أرنولد كيتتل فيقول : « ان روبنسون كروزو تعد من ناحية قصة فى امتداح الفضائل البرجوازية وهى الفردية والعمل الخاص ·· أما من ناحية أخرى أهم فانها تشيد بضرورة الحياة الاجتماعية وكفاح الانسان عن طريق العمل لقهر الطبيعة » ·

وسواء نظرنا الى هذه القصة من خلال هذه النظرة أو تلك فمما لا شك فيه أنها تمثل على المستوى الرمزى ناحية أهم وأعمق وهى شعور الانسان بالوحدة الكاملة فى علاقته مع الله والوجود · ولعل تصويرها لهذا الشعور بالوحدة التى يقاسى منها الفرد فى العالم الحديث بوجه خاص هو الذى يقربها الى نفس القارىء الحديث بالرغم مما يرى فيها من تكرار ممل واغراق فى التأملات الدينية والفلسفية التى قد تفسد عليه استمتاعه بها ·

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٤٩٣٧ / ١٩٩٤

ISBN — 977 — 01 — 3814 — 2

مكتبة الأسرة





بسعر رمزى عشرة قروش
بمناسبة
مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٤

مطابع
الهيئة المصرية العامة للكتاب